

قراءة في رواية أعشقني للدكتورة سناء الشعلان

بقلم: د. صلاح معاطي / مصر

الدكتورة سناء الشعلان كاتبة أردنية لها العديد من الروايات والمجموعات القصصية والمسرحية بالإضافة إلى مشاركتها في بعض الكتب النقدية المتخصصة وقد شاركت في عدد من المؤتمرات الدولية كالمؤتمر الفرانكفوني الأردني الدولي الثاني، ونالت العديد من الجوائز الأدبية. ورواية أعشقني للأديبة سناء الشعلان هي رواية من الخيال العلمي حاولت من خلالها سبر أغوار المستقبل واستشراف ما يخبئه التطور العلمي من أحداث نلمح بداياتها الآن وتنطلق بها إلى الألفية الرابعة بحثا عن عالم جديد، تتحول في مجرة سكة التبانة هو كوكبنا القادم الصالح للحياة.

تتميز هذه الرواية بلغة وأسلوب يجعل للكاتبة شخصية مميزة حيث الرواية مليئة بالصور المعبرة المؤثرة اختارت موضوعا جديدا حيث رجل وامرأة يقع لهما حادث يؤدي بحياة المرأة بالرغم من أن جسدها مازال كما هو لم يمسه سوء وهو تم تدميره تماما، ولكن ما زالت به الروح ومازال رأسه يعمل فيتم دمج رأسه بجسدها وهنا يكشف ذلك الرجل الذي زرع في جسد أنثى أن هناك أشياء كثيرة لم تكن لتحدث له

على الإطلاق فيكتشف أولاً أنه أنثى وليس ذكراً عندما تمتد يده بعفوية إلى قضيبه فلا يجده ويكتشف بعد فترة أنه حامل وفي انتظار وضع مولوده ويكتشف أن للمرأة التي حبس فيها حياة خاصة جداً تختلف عن حياته هو وعن علاقة برجل اسمه خالد هو والد الجنين الذي يحمله في أحشائه.. ويعود إلى مذكرات تلك المرأة التي أطلقت عليها المؤلفة لقب نبية.

تستهل سناء الشعلان روايتها بمقدمة هي من صلب الرواية أطلقت عليها "يوميات امرأة عاشقة في مجرة درب التبانة". في محاولة منها للبحث عن حياة أفضل بعد أن صار الإنسان في حالة أسوأ مما كان عليه في الألفية الثانية لكوكب الأرض. حيث إن الحب هو البعد الخامس الأهم في تشكيل معالم وجودنا، وحده الحب هو الكفيل بإحياء هذا الموات، وبعث الجمال في هذا الخراب الإلكتروني البشع، وحده القادر على خلق عالم جديد يعرف معنى نبض قلب، وفلسفة انعتاق لحظة، أنا كافرة بكل الأبعاد خلا هذا البعد الخامس الجميل، أنا نبية هذا العصر الإلكتروني المقيت، فهل من مؤمنين؟ لأكون وخالد وجئنا القادم المؤمن الشجاع في هذا البعد الجميل. ص 9.

تنقسم الرواية إلى مجموعة من الأبعاد كل بعد يرتبط بجانب في حياة إنسان العصر القادم، فالبعد الأول وهو الطول، حيث نقطة الانطلاق في الرواية هذا الجسد الأنثوي العاري دون خجل مع ما

أصابه من الكثير من الجروح والحروق والكدمات نتيجة تعرضه للتعذيب، يرقد في ثبات داخل غرفة في المستشفى وبجواره جسد ذكوري مازال رأسه يعمل بالرغم من تدمير معظم جسده على أيدي الثوار التي تنتمي إليهم هذه الفتاة، حيث جمعتهما الأقدار في هذا المكان متقابلين على سريرين بجسدين عاريين فينظر لها بغیظ وهو يردد "هذا الجسد خصمي لكنني لست خصمه" جملة عبقرية تنقل الحدث إلى المستوى السياسي.

مع البعد الثاني وهو الزمن يتم الحديث عن عملية نقل دماغ الرجل إلى جسد المرأة، وهنا تتعرض الكاتبة لما يمكن أن تصل إليه العلاقة بين الرجل والمرأة في الزمن القادم، مع التطور الحضاري الرهيب الذي سيجعل الحياة أكثر جفافاً بعد انقراض العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة، حيث سيتم استحداث وسائل تواصل جسدية إلكترونية وأدوات تناكح مخبرية لا تعرف التواصل الجسدي المحض والمعتاد، وكأن الكاتبة تستشرف ما هو قادم بالفعل من تقنيات "ميتافيرس" والتي ستحدث انقلاباً أخلاقياً وحضارياً في المستقبل القريب وليس البعيد.

(ص 35)

نصل إلى البعد الثالث "الارتفاع" وبعد نجاح العملية يتحول رائد مركبة الفضاء إلى مخلوق مزدوج أنثوي بعقل ذكوري سيرتدي دماغه

جسدها، وهي ستكونه وهو سيكونها وبذلك يكون رجلا في جسد امرأة، أو جسد امرأة بعقل رجل، أي سيكون اثنين في واحد. ص 23
بعد أن تتمّ عملية إجراء نقل رأس الرجل إلى جسد المرأة، تمضي سناء الشعلان في تصوير وصف الرجل بشعوره بالعجز وهو حبيس ذلك الجسد الأنثوي الذي وجد نفسه فيه رغما عنه، كإجراء مؤقت قبل نقله مرة أخرى في جسد رجل. ويستمر التصاعد الدرامي مع اكتشاف البطل "باسل المهري" أنه يعاني انتفاخا وتكورا في بطنه يعلم بعد ذلك أنه أعراض الحمل. ويتساءل أمام الطبيب هل هو مرض خطير يرد عليه الطبيب هو ليس مرضا بالمعنى الدقيق لكنه حالة جسدية طارئة لها ظروفها وشروطها.

يتحقّق الحمل، يعلنه كبير الأطباء المشرفين على علاجه. شرع يضرب بطنه بجمع قبضتيه على أمل أن يحرك بروزه البغيض من مكانه أو يقلص من حجمه الكبير الناتيء بشدة من جسده النحيل، لم يتحرك التكور، فازداد غيضا وقرعا، وضربا. ص 37

حين يستعيد باسل وعيه يواجه بعض المشاكل النفسية بمجرد ملامسة قضيبه الذي طالما ما كان يتباهى به فيجده محض تجويف ناعم له أطراف وأشفار تذكّره بالشكل المنقّر للجزء السفلي من جسد زوجته الذي اقترن بذهنه بالتبول والتغوط ورائحة التعرق الكريهة. ص

تبدأ معاناة باسل المُهري الحقيقية، وي طرح أسئلة واستفسارات عن ذاته ووجوده وكيونته في عالم مجرّة درب التبانة. لكن رغم هذا، فإن باسل المُهري لا يسرّه ما يقوله الأطباء وراح يطرح أسئلة وجودية حين تختلط عليه الأمور، إن كان هو هي، أم هي هو، أم كلاهما هما، أم كلاهما ليس هما. ص 49

حين يدور حوار بين باسل المُهري وكبير الأطباء حول جدوى هذه العملية وتكرارها مع غيره من البشر بعد التأكد من نجاحها ووضع حد لها وإلغائها تماما بوصفها طريقة بشعة للإنقاذ فضلا عن عدم جديتها والموت خير له. يرد عليه كبير الأطباء بحماس. مَن يعلم قد نكون قد استطعنا حتى ذلك الوقت أن نحل معضلة الموت، وننهيه من قاموس البشرية والوجود تماما، نحن أحرزنا تقدما كبيرا في هذا الشأن، قبل أسابيع فقط استطعنا أن نرد الحياة لكائن لمدة ساعة من الزمن بعد موته بساعتين ، صدقني يا باسل سيأتي اليوم الذي يصبح فيه الموت مجرد حدث منقرض لا وجود له، وعندها ستنتهي كل الآلام والأحزان والمكابدات المتعلقة به... ص 45

لكن باسل المُهري يحتفظ بأرشف جسدها، جسد نبيّة العصر الكوني، يحصل عليه من مخابرات كوكب مجرّة درب التبانة، لكن هنا ثمة أسئلة تطرح نفسها؛ ما الذي يحدث من تداعيات أخرى على عملية تركيب عقل ذكوريّ في جسد أنثويّ؟ هل هذه الصنّاعة البشرية لكائن

مزدوج ذكوريّ وأنثويّ في كوكب يبدو متقدّماً في صناعة المخلوقات البشرية، ومن خلال فهمها للخيال العلميّ، وتذهب الكاتبة من خلال السرد إلى أنّه ليس هناك مستحيل في كوكب يعيش الألفيّة الثالثة من أن يحقّق هذا الخلق البشريّ؟

تلاحقنا الكاتبة بالعديد من التساؤلات المهمّة؛ مثل: ما هي التّداعيات التي يخلّفها هذا النوع من الحياة الأبدية دون رقابة؟ هل سوف يتلاشى إكسبير الحياة الأبدية بعد خلود الإنسان؟ وما الذي تقدّمه الحياة من ابتكارات وإبداعات ونشاطات فكريّة كان الإنسان يسعى إليها في شتّى المجالات الحياتيّة الأخرى منذ الخليقة الأولى؟

إنّها محض تساؤلات تضعها أمامنا الروائيّة سناء الشعلان من خلال روايتها، وتبقى تساؤلات تبحث عن إجابات.

ننتقل بعد ذلك إلى البعد الرّابع "العرض"، فيقول باسل المهريّ: في حضرة جسدها أشعر بكلّ الغربة والتّطّيل، فيتعمد ألا يرى جسده وألا يلمسه، ويقول: "أنا الآن باختصار جسدها ولا شيء غير ذلك".

يتحوّل الصّراع داخليّاً؛ فهو يضرب جسدها المحبوس فيه، سيحوّله إلى جسد ذكوريّ بالرّغم عنها، وسيحلق شعره، وفي اللّحظة المناسبة سيهجر هذا الجسد، ويرحل إلى جسد آخر، نعم، سينتصر عليها.

هنا تبدو المسألة القدريّة التي توفّق خيال أو قدرة الكائن الفضائيّ في أن يتحرّر من هذا الاحتلال الجسديّ، وما عليه في نهاية الأمر إلى

أن يبحث عن صاحبة هذا الجسد، ليعلم مصالحة معها للخلاص من عذابات ومكابداته "عليّ أن أحدّد بدقّة ماذا أريد أن أعرف عنها، لعلّي سأجد ما يجب أن أجد لأعرف ماذا أريد منها أو عنها في هذه الحزمة الضّبويّة المكتوبة، وهي الباقي الوحيد منها في ملفّها في المخابرات" ص 64

نصل إلى البعد الخامس، ويشعر بأسل المهري في مستهل يوميات النبيّة شمس، وعلى عجل ما دونته عما أطلقت عليه أن الحب هو البعد الخامس في تشكيل معالم الوجود البشري، ويعلمنا أن هذه اليوميات قد كتبت بالنابض اليدوي دون الركون إلى طريقة النابض النووي وهي الطريقة السائدة لدى سكان مجرّة درب التبانة التي لا تكلف عناء يذكر ويقول لنا كل ما عليها هو أن تثبت الشريط النابض النووي على مؤخرة رأسها حيث الدماغ وتكف عن الكلام... وتتثال الأفكار في ذاكرتها بسهولة ويسر.

هذه رؤية استشرافية للمستقبل لما يمكن أن تكون عليه الكتابة في الزمن القادم. وصفت الكاتبة شكل الحياة الرقمية التي تطغى عليها المادية البغيضة بشكل أكثر من جيد وتتبؤها بأن التدخل الإلكتروني السافر في حياتنا سوف يؤثر على نمط تفكيرنا وأسلوب حياتنا ومشاعرنا حتى في قوتنا الجنسية فالموضوع جديد مكتوب بلغة عالية وأسلوب راق.

لكن هناك بعض المثالب:

1- اختارت الكاتبة عام 3010 لتدور فيه الأحداث وكأن هذا التاريخ البعيد هو المبرر العلمي لحدوث الأحداث لكنها لم تقدم تبريرا علميا لحدوث عملية نقل الدماغ إلى الجسد. ولا كيفية حدوث ذلك

2- طوال الرواية غلب السرد التقريري على الحدث مما أثر على تدفق الأحداث في الرواية بل إن الرواية ما هي إلا الحدث المهم المتمثل في زراعة دماغ الرجل في جسد المرأة وكل ما تلا ذلك الصراع النفسي داخل عقل الرجل ومذكرات المرأة؛ مما شاب النص بعض الملل.

3- تكرار المعاني والصور والتراكيب اللغوية والأسلوبية. في النهاية أحيي الكاتبة على خوضها هذه المنطقة المهمة من أدب الخيال العلميّ مع عرض العديد من الأفكار العلمية التي تصلح أفكارا لعدد من الروايات العلمية المهمة، كما أثني على أسلوبها الجزل ولغتها الشاعرية الراقية.